الفلاح : نماذج من صوره على الاثار العربية الاسلامية

الدكتور صلاح العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لم تحظ المهن والحرف بعناية المؤرخين مثلما حظيت الاعمال الاخرى كانجازات القادة وبناء المدن وفتحها وسيرة الخلفاء والملوك وغير ذلك من المعلومات التي تتعلق بالنواحي السياسية ومايجري في بلاط الخلفاء والسلاطين ويمكن ان نعزو هذا النقص الى ان المؤرخين كانوا اقل التصاقا بواقعهم المعاش من غيرهم ممن التفتوا الى تسجيل جزئيات الحياة اليومية الواقعية سواء كان ذلك عن طريق الادب او الفن .

وقد كان الادباء والشعراء أقرب الى واقعهم بحكم صنعتهم من المؤرخين ، لذلك نجد في أدبهم وشعرهم اشارات كثيرة الى وصف بعض الحرف والمهن وارتيادها ، حتى اننا نستطيع ان نستخلص من الشعر صورا لكثير من مستلزمات هذه الحرف ووسائلها .

اما الفن ، وبالاخص التصوير ، فانه بحكم نقله للبيئة وتأثره بها ، فقد كان اكثر نزوعا نحو هذا اللون من العمل . وقد انعكس هذا كله على منتجاتهم المختلفة ، فجاءت اثارهم غنية بالرسوم والصور التي تمثل تلك الجوانب ، لذلك استطعنا ان نستخلص من الصور الممثلة على التحف الاثرية العربية كثيرا من سمات ارباب الحرف والمهن الشعبية وكنا قد اشرنا في بحث سابق عن الحمال[1] الى أننا سوف نتطرق الى بقية اصحاب الحرف والمهن، لذا آثرنا في هذه المرة الحديث عن الفلاح في العصر العباسي . وذلك لما تحمله شخصيته من أبعاد اجتماعية واقتصادية بعيدة الاثر في حياتنا ، فهو

المنتج المباشر للقوت ، والذي على يديه يتم احياء الارض الميتة وارواؤها ، والذي من فيض يديه نستطيع الحصول على المنتجات النباتية والحيوانية ، ان هذه الجوانب وغيرها سوف تتوضح من خلال بحثنا ، الارض والالات والحيوان باعتبارها اجزاء متممة لصورة الفلاح .

ولابد لنا قبل الكلام عن الفلاح ، ان نشير الى ان اصل الزراعة وتدجين الحيوان قد ظهر لاول مرة في العصر الحجري الحديث في شمال العراق في حدود الالف الثامن او السابع قبل الميلاد ، حيث ظهرت هناك بعض القرى الفلاحية ومنها قرية « جرمو » التي تعتبر من اقدم تلك القرى في العالم[٢]

وقد تناولت شريعة حمورابي بين أشياء كثيرة امورا تتعلق بالسري وبالزراعة وادارة الحقول والالات الزراعية ، وغيرها حتى انها فرضت عقوبات على كل من يخالف تلك القوانين[٣] .

وتفيد أخبار اليمن السعيد بانها كانت على درجة كبيرة من التقدم والتطور في مجال الارواء والسقي ، وما تزال اخبار سد مأرب تملأ الكتب في صور قصص تكون جزءا مهما من تراث الامة العربية في حقل الارواء .

وعرف عن الرسول (ص) اهتمامه بشؤون الزراعة ، حتى اثر عنه الحديث المعروف « من احيا ارضا مواتا فهي له »[٤] . وحكي ايضا ان النبي (ص) رأى خشونة في يد سعد بن معاذ الانصاري ، فسأله عن السبب فقال : «اثر المسحاة اضرب وانفق على عيالي» . فقبل ان الرسول (ص) قبل يده ، وقال : « هذه يد لا تمسها النار »[٥] .

وسار الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على مبدأ ابقاء الاراضي الزراعية بايدي مالكيها على ان يدفعوا عنها الخراج[٦] كما اتبع سياسة تطبيق مبدأ التعويض بحق الفلاحين والمزارعين فقد جاء في كتب التاريخ ، ان رجلا اتى الى عمر ، فقال : « ياامير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فافسدوه ، قال : فعوضه عشرة الاف [٧] .

وقد اوصى عمر بن الخطاب خيرا بالفلاحين ، وامر بعدم قتلهم او الحاق الاذى بهم ، فيروى عنه قوله : « اتقوا الله في الفلاحين ، لا تقتلوهم الا ان ينصبوا لكم الحرب »[٨] .

وتفيد اخبار الدولة العربية الاموية ان أصحاب الامر فيها قد اولوا الجانب الزراعي أهمية خاصة ، ففي زمن الخليفة عبدالملك بن مروان بلغت الزراعة مرحلة متقدمة ، اذ تفيد كتب المؤرخين بان الحجاج بن يوسف الثقفي كان معجبا بالزراعة ، مهتما بمواسمها ، كما كان مهتما بالارصاد الجوية ، ويحصي كمية الامطار لعلاقتها بالزراعة[٩] كما كان يشجع الاعياد الزراعية ، ويحتفل بمحصول كل زراعة كما امتدت عنايته الى الحيوانات التي لها علاقة بالزراعة وكان في زمانه قد منع ذبح الابقار وخاصة الصالحة منها للحرث والري والخدمات الزراعية الاخرى[١٠] .

ومما يذكر عن الخليفة هشام بن عبدالملك انه اولى اهتماما بالاراضي ، فعمل على أحياء الصالحة منها للزراعة وعلى زيادة انتاجها .

وكذلك الحال بالنسبة الى العصر العباسي ، فقد ازدهرت الزراعة في هذا العصر ، وتنوعت المحاصيل الزراعية ، وبلغ من اهتمامهم بالجانب الزراعي ، ان الخلفاء والحكام كانوا يتدخلون في شؤون الزراعة من جميع النواحي ، فاهتموا اهتماما عظيما بمشاريع الري وانشاء السدود والقناطر وحفر الترع واحياء الاراضي وايصال الماء الى الاماكن التي لا توجد فيها مياه لغرض زراعتها . كما أصبحت حرفة الزراعة من أهم الحرف التي تدر دخلا وارباحا ، فكان الناس في الاسواق يحصلون على أنواع المحاصيل الزراعية ، مثل الحبوب والخضر[١١] والفواكه[١٢] .

وكذلك ما يحتاجونه من الحيوانات كالماشية وغيرها[١٣] .

ومما يؤسف له ان كل هذه العناية من قبل المؤرخين وغيرهم بالزرع والسقي والاراضي والحيوانات والالات الزراعية كانت تنقصها عنايتهم بالبشر الذين كانوا يقومون بهذه المهام كلها ، حيث لم ترد الينا اخبار وافية عن الفلاحين والاشخاص الذين يدجنون الحيوانات في المزارع او يعتنون بتربيتها ، او ممن يقومون بنقل المحصولات الزراعية الى المدن المختلفة .

لقد جاءتنا اخبار عن الفلاحين قد لا تكون كثيرة تشير الى ان بعض السلاطين كانوا يفرضون على الفلاحين ضرائب باهضة كما حصل في سنة ٥٤١هـ . عندما فرض السلطان عماد الدين زنكي على فلاحي مدينة الموصل ضرائب عالية فتركوا اراضيهم وهاجروا الى ماردين لان اميرها كان لايأخذ من الفلاحين الا العشر ، فما كان من عماد الدين زنكي الا والذر امير ماردين باعادة الفلاحين الى الموصل والا فانه سيقود الجيش ويسحق ماردين واهلها ، وقد اذعن الامير لهذا التهديد واعاد جميع الفلاحين الى الموصل[١٤] .

وتشير الروايات التاريخية ان الجند كانوا في بعض الاحيان يعتدون على الفلاحين ويخربون قراهم ومزارعهم . ومع ذلك فقد وجد من السلاطين من كان يمنع عبث الجند بالقرى وايذاء وقتل الفلاحين . وقد انتقد السبكي ديوان الجند المتولى لامر الاقطاعات العسكرية مستنكرا الزام الفلاحين في الاقطاع ، مؤكدا ان «الفلاح امير نفسه لايد لا دمي عليه[١٥]» .

كما عرف عن الفلاحين انهم كانوا لا يسكتون على ظلم بل كانوا يقاومونه بعنف ، ويخبرنا ابن الجوزي ان ثلاثة من الفلاحين دخلوا على عامل الخليفة على منطقة نهر ملك ويدعى الحويزي ويعذبهم ويستخرج الاموال فلا يتلبس بها اظهارا للزهد[١٦] .

ومع ندرة الاخبار والاشارات الواردة عن الفلاح في العصر العباسي ، فاننا نستطيع ان نلمح ولو بصورة مقتضبة الى شيء من تخصص العمل

الحرفي بين جماهير الفلاحين ، حيث ورد مصطلح «الحواصد»[17] للدلالة على بعض الاشخاص الذين يقومون بعملية الحصاد ، و «الحراثين»[18] على اولئك الفلاحين الذين يقومون بعملية حراثة الاراضي وتهيئتها للزراعة .

وقد وصف اخوان الصفا [19] الصنائع بحسب فائدتها ، فجعلوا الحراثة من بين الصنائع الاساسية الضرورية للمجتمع .

وفي مجال الري تجد تخصصا بين الذين يعملون في هذا الميدان ، فهناك عمال مهرة يشرفون على توزيع المياه في القنوات الرئيسية والفرعية يسمون بالقياسين أو الحسابين وعمـــال غير مهرة يديرون الدواليب والنواعير[20] وهكذا .

وقد دلت دراستنا لهذا النوع من المهن على مقدار ما للاثار من اهمية كبيرة في ايضاح كثير من الجوانب مما نعتمد عليه في دراستنا ، فقد كشفت رسـوم الفنانين من العصور الاسلامية عن كثير من الحقائق المتعلقة بهذا الجانب والتي تزالها ظلت غامضـة ومجهولة علينا .

وستفيدنا هذه الرسوم من جانب اخر في التعرف على انماط الفلاحين في الزي والملبس ، وما كانوا يستخدمون من الالات ووسائل العمل الاخرى ، وكذلك في التعرف على حيواناتهم التي كانوا يستعينون بها في الحقـل او المزرعة ، ونستطيع ان نستنتج ايضـــا من هذه الرسوم اساليب الزراعـــة والطرق المتبعة فيها يومئذ وسوف تتوضح هذه الجوانب تباعا عندما نمر بها مدعمين ذلك بالشواهد المصورة خلال البحث .

ومن دراستنا للاثار العربية الاسلامية التي تعود الى العصر العباسي ، وجدنا صورا للفلاحين وما يتعلق باعمالهـــم الزراعية ممثلة عليها ، والذي يتفحص هذه الاثار يرى نماذج متعددة من هؤلاء الفلاحين وهـــم يعملون في مزارعهم وحقولهم ، نذكر من هذه الاثار مخطوط كتاب الترياق لجالينوس الذي يرجع تاريخه الى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م المحفوظ في المكتبة الاهلية في

باريس ، ففي المخطوط تصويره[٢١] توضح قصة خلاصتها انه كان لاحدهم ضيعة في بعض الحقول وكان صاحب الضيعة يرسل الى فلاحيه في هذه الحقول غذاؤهم ، وحمل اليهم في يوم زادا وشرابا ، وكان الشراب في جرة مصنوعة من الفخار ، فلما فتحوا الجرة وجدوا في الشراب افعى قد تمرأت فلم يذوقوه واعطوه الى رجل مجذوب في القرية على اساس ان هذا الشراب سوف يقتله ويخلصه من العذاب الذي يعانيه ... الخ . وقد نقل لنا الفنان هذه القصة في تصويرتين نشاهد في التصويرة الاولى (شكل ١) منظرا ريفيا لمزرعة يبدو فيها مجموعة من الفلاحين يؤدون اعمالا زراعية مختلفة ، وتظهر هذه الاعمال في شكل تسلسل طبيعي للعمل الجاري في المزرعة ، مثل حراثة الارض وحصاد النبات ودرس الحبوب وتذريتها وغربلتها ، ويظهر في القسم العلوي من التصويرة وعند الزاوية اليسرى صاحب المزرعة يلابسه المزركشة يراقب

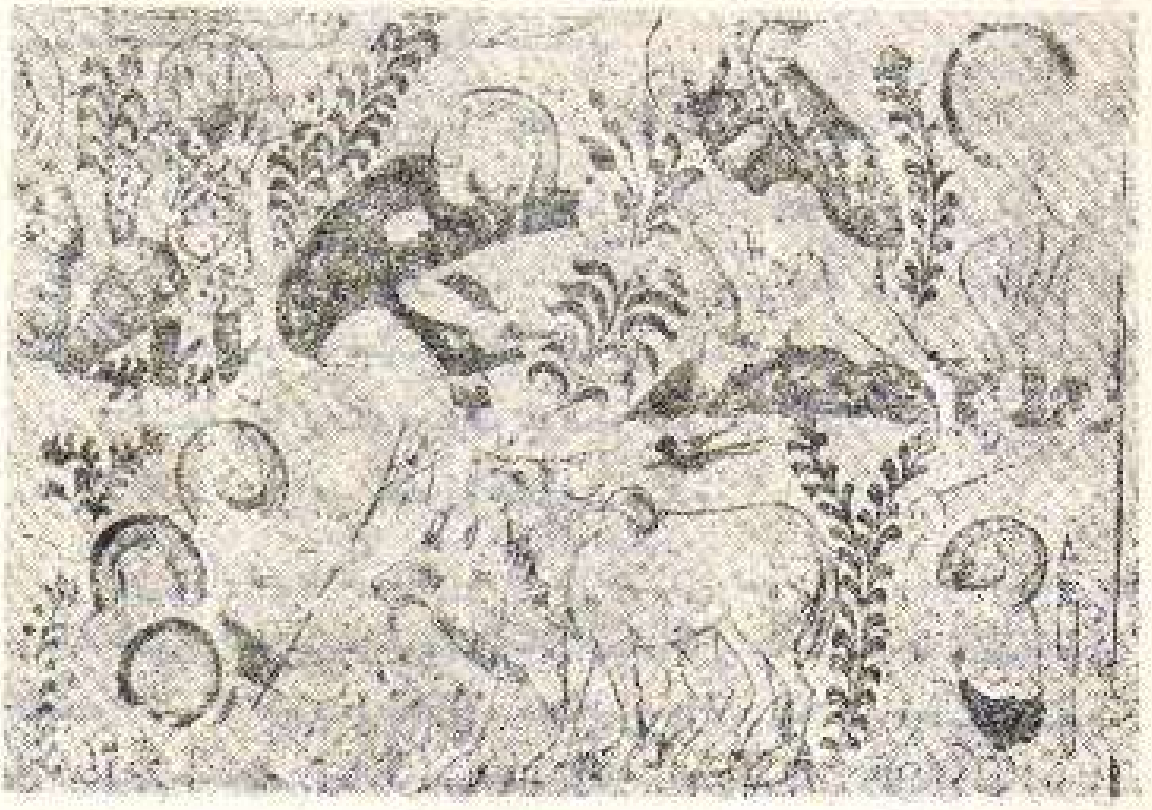

(شكل رقم ١)

عن كتب اعمال الفلاحين ويرصد حركاتهم . اما الفلاحون فقد ظهروا موزعين هنا وهناك : فاثنان منهم في الجهة اليمنى يقومان بتهيئة التربة وحرثها بواسطة الة بسيطة تعرف بالمسحاة ، او كما يسميها صاحب كتاب التلخيص بالمعرقة [٢٢] ، فالفلاح الاول الذي يظهر على الجهة اليمنى يمسك بالمسحاة من نهايتها العليا باليد اليسرى ، بينما قرش كفه الايمن وقبض على المسحاة من ربعها السفلي ، وثبت قدمه اليمنى على كف المسحاة مباشرة ، وعلى مقربة من هذا نرى الفلاح الثاني وقد امسك بمسحاة ذات خشبة معترضة قرب كف المسحاة ، وهي الخشبة التي يعتمد عليها الحافر برجله ، وتعرف بـ «عتبة المسحاة»[٢٣] وجاءت قبضة هذا الفلاح للمسحاة من اسفلها بيده اليسرى ، بينما امسك بنهاية المسحاة بيده اليمنى ، وقد وضع قدمه اليسرى على عتبة المسحاة .

ويبدو الفلاح الاول في الصورة متعبا الى درجة كبيرة ، مما يدل على ما يعانيه من قسوة العمل ، وقد ارتسمت على وجهه علامات المعاناة ، في حين ظهر الفلاح الثاني بحيوية ونشاط ومنسجما مع العمل الذي يؤديه .

ويسترعي زي هذين الفلاحين انتباهنا ، اذ ان الفلاح الاول ظهر بسروال مثبت على وسطه بما يعرف بالتكة[٢٤] وقد جاءت هنا فوق السروال وليست بداخله كما هو مألوف ، والتكة تبدو من النوع العريض وهي مصنوعة من سفيفة من النسيج ، ويصل طرفاها السائبان الى منتصف الساقين تقريبا .

اما زي الفلاح الثاني فانه يرتدي نوعا من الملابس اقرب في شكلها الى مايعرف بالجمازة[٢٥] والجمازة نوع من الجباب ، وتظهر في الصورة قصيرة ، وتصل في الطول الى الركبتين تقريبا ، وللجمازة كمان قصيران يصلان الى الكوعين ومزينتان بشريطين عريضين خاليين من الزخرفة .

وقد هدتنا التصويرة نفسها الى رؤية فلاح ثالث مشغول بالحصاد والصورة تظهر فلاحا قد ثنى رجله اليمنى على الارض وارتكز على ركبتها ، ومد رجله اليسرى وارجعها الى الخلف بينما ثنى الرجل اليسرى ليسهل عليه عملية الحصد ، وقد أمسك الفلاح بيده اليسرى قبضة طيبة من السنابل يحاول قطعها بواسطة منجل صغير يقبض عليه باليد اليمنى ، ويظهر المنجل هنا من النوع ذي المسنن ، وهو الذي تطلق عليه المصادر التاريخية اسم «المخلب»(٣٦) .

اما الملابس التي يرتديها هذا الفلاح فلا تظهر في الصورة بشكل واضح وعسى ان لا تكون مختلفين اذا قلنا ان ملابس البدن مؤلفة من جنازة اسوة بالفلاح السابق ، كما يرتدي في الوقت نفسه سروالا قصيرا وقد جاء السروال هنا ضيقا ومحبوكا على الجسم ، ويصل في الطول الى أعلى الركبتين .

وقبل الانتقال الى صورة اخرى ، لابد ان نشير الى نقطة جديرة بالملاحظة وهي ان الجنازة كما توحي الصورة بها انها ثوب شعبي يظهر بين الناس كزي للفلاحين يرتدونه في اوقات خاصة معينة كأوقات العمل .

وربما يتبادر الى الذهن ان عمل الفلاح ينحصر فيما ذكرناه من حرث وزرع وحصد ، الا ان الصورة نفسها اظهرت لنا فلاحا يؤدي عملا زراعيا لا يقل عن الاعمال الاخرى أهمية ، وهي عملية درس الحبوب وعزلها عن الشوائب بآلة يقال لها «النورج» والنورج عبارة عن عربة خشبية ذات عجلات حديدية ثقيلة تجرها حيوانات الحقل والصورة تعكس شكل ثورين يجران تلك العربة وقد جلس الفلاح خلفهما على مقعد مركب في مؤخرة النورج ، وعمل الفلاح هنا ينحصر في سوق الحيوانات وقد استخدم لهذا الغرض عصا رفعها في الهواء ، وراح يحث تلك الحيوانات على تأدية العمل بشكل مستمر وبلا توقف .

ولكي تكتمل ابعاد الصورة في ذهن القارىء ، نود ان نوجز عمل هذه الالة ، اذ ينحصر في حزم سنابل الحبوب مثل القمح والشعير ، فتنشر العربة فوق تلك الحزم وتقرمها محولة القش الى تبن ومحتفظة بالحبوب سليمة .

ويشاهد الفلاح هنا ، وقد بدا النصف العلوي من بدنه عاريا ، بينما اكتسى النصف الاسفل من البدن نوعا من الملابس يعرف بالتبان[٢٧٦] ، وهو سروال صغير يستر العورة ، وقد ظهر في الصورة بلون احمر خال من اية رخرفة (شكل٢) .

(شكل رقم ٢)

وفي امكاننا ان نعزو اتخاذ هذا النوع من الملابس من قبل طبقة الفلاحين ومن شاكلتهم الى انه يوفر لاصحابه حركة اوسع من غيره اثناء العمل .

ويتصل بعمل الفلاح ايضا فضلا عما تقدم ، عمله في تذرية الحبوب وفصلها عن القش بعد عمله السابق في آلة يقال لها المذراة ، وترينا الصورة المتقدمة فلاحا امسك بمستار[٢٨] مؤلفة من ذراع طويلة تنتهي طرفها العلوي بما يشبه اصابع الكف المبسوطة • والفلاح في هذه الصورة منهمك في عمله ، وقد اخذت ساقه اليسرى وضعا يتناسب وحركة الجسم واليد عند الميلان والسقوط ، ان ظهور الفلاح في هذه الصورة يتناسب والعملية التي تستوجب وقوفه مع اتخاذه موقفا يعاكس الريح حتى يتم فصل القش عن الحبوب بواسطة الريح وبسهولة ، لان الرياح عندئذ ستأخذ معها القش بعيدا وتسقط الحبوب في الموضع القريب من الفلاح •

ومن الملاحظ ان شكل المذراة هذه لا تختلف عن المذراة التي كان يستعملها قدماء العراق مثل السومريين وذلك قبل الاف السنين ، فقد عثر في مدينة نيبور (نفر) على لوح رخامي (شكل ٣) يرجع الى ما قبل ٤٥٠٠ سنة ، نقش عليه رسم فلاحة تحمل بيدها مذراة لا تختلف في شكلها عن مذراة العصر العباسي ، كما انها لا تختلف في الوقت نفسه عن المذراة التي يستعملها الفلاحون في وقتنا الحاضر •

وكذلك يتصل بالعملية المتسلسلة من الحرث بالمسحاة ، والحصد بالمنجل الى الدوس بالنورج ، والتذرية بالمذراة ، عملية أخرى ، هي تنقية الحبوب من سائر الشوائب الاخرى بأداة يقال لها الغربال ، والصورة تبرز فلاحة امسكت بيدها غربالا ، ويكون عادة دائري الشكل ذا أطار خشبي يشبه المصفاة ، ولا تظهر لنا الصورة المادة التي صنعت منها عيون الغربال ، لكننا نخمن انها قد تكون من الياف النبات •

ان هذه الاداة الزراعية ليست بجديدة على مجتمع العصر العباسي ، فقد وردت أشارة اليها في قصيدة كعب بن زهير بن ابي سلمى المشهورة في مدح الرسول (ص) التي يقول فيها الشاعر[٢١] :

وما تمسك بالعهد الذي عهدت الا كما تمسك الماء الغرابيل

(شكل رقم ٢)

وتضم الصورة فضلا عن التفصيلات الوافية التي قدمناها صورا لحيوانات ونباتات ، وقد سبق ان ذكرنا صورة الثورين اللذين يجران النورج ، ونود هنا ان نذكر في الصورة حيوانا اخر يبدو القسم الامامي من متضمة حصار يحمل حزمة كبيرة نظن انها من سنابل القمح المعدة لدرسها وتذريتها وغربلتها خصوصا وان الحصار قادم في اتجاه الفلاحين المنتشرين في الحقل والذين يقومون بالعمليات الزراعية المذكورة .

وعلى العموم فالصورة تعكس مشهدا متكاملا لمجتمع زراعي تجري فيه العمليات الزراعية المختلفة ، ويستطيع المرء من خلالها ان يكون في ذهنه فكرة لصورة تعتبر فريدة في نوعها وتكاد تكون الوحيدة من بين الآثار العربية التي تجمع عدة فعاليات زراعية في وقت واحد .

اما التصويرة الثانية المكملة للصورة الاولى ، فترينا الشخص المجذوب وهو يتسلم كأسا من رجل اخر ، والى يمين التصويرة فلاح يحمل بيده اليمنى جرة ، بينما نشاهد فلاحا اخر الى الجهة اليسرى يحرث الارض بمسحاة من نوع المساحي التي تحدثنا عنها مسبقا ، وقد ظهر الفلاح في وسطه ازار مسبل عقده من الاعلى فنجم من ربطه طيات كثيرة ، بعضها على شكل خطوط والبعض الاخر على شكل حلزونات .

ووجدنا على التحف المعدنية امثلة لفلاحين اخرين كالذي على ابريق[٣٠] (شكل ٤) من النحاس مؤرخ من سنة ٦٢٠هـ ـ ١٢٢٣م محفوظ حاليا في متحف كليفلاند وهو من صناعة احمد الذكي النقاش الموصلي ومن النقوش التي تزين الابريق المذكور صورة تمثل حراثة الارض بواسطة المحراث ؛ والصورة تظهر لنا مزرعة ذات اشجار متشابكة الاغصان ينتهي معظمها باشكال دائرية تمثل ثمارا لم يتحدد نوعها ، ويتخلل هذه الاشجار رسم أحد الحراثين خلف محراث يجره ثوران ، وقد قبض الفلاح على الة الحرث التي تعرف

بالدستق ، والدستق هي الخشبة التي يقبض عليها الحراث وتنتهي بآلة حادة تعرف بالسكة او السنة وبها يتم الحرث[٣١] .

(شكل رقم ٤)

وشكل المحراث هذا يذكرنا بالمحراث السومري القديم الذي كان يستعمله الفلاحون في ذلك الوقت كما يتضح لنا ذلك من احد النقوش التي ترجع الى العهد الاكدي (٢٣٧١ــ٢٢٣٠ ق٠م)[٣٢] (شكل ٥) .

(شكل رقم ٥)

وقد ظلت هذه الآلة يتناقلها الفلاحون جيل عن جيل حتى وصلت الى يومنا هذا محتفظة بشكلها وطريقة استعمالها كما كانت عليه منذ اقدم العصور .

واضافة الى الامثلة المتقدمة ، فقد عرض لنا رسم منقوش على شمعدان[٣٢] (شكل ٦) من النحاس من صناعة بن جلدك الموصلي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، والرسم يمثل مزرعة تتوسطها شجرة محورة عن الطبيعة عليها فلاح يقطف فاكهة تبدو انها من التفاح ، بينما ظهر الى كل من يسار الشجرة ويمينها فلاحان اخران الاول يضع مسحاة على كتفه الايمن وقبض عليها بيمينه اما يساره فقد أسندت على ساق الشجرة ، والمسحاة مؤلفة من مقبض طويل تتصل به تقريبا من اسفله عترة المسحاة ، وفي نهايته كف المسحاة التي ظهرت على شكل مثلث متساوي الساقين ، اما الفلاح الواقف على الجهة الاخرى من الشجرة فقد امسك بالمسحاة بواسطة يده اليمنى من الوسط ويساره من أعلى المسحاة مثبتة عند العكس ، وتختلف كف المسحاة عن سابقتها في شيء واحد حيث لها تتوءان من جانبيها اشبه ما يكون باذنين ،وبدت صورة الكفة فيها شيء من الاستطالة .

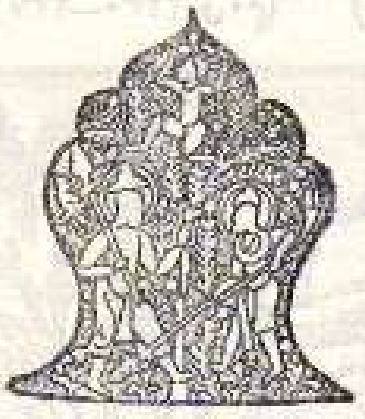

(شكل رقم ٦)

ويظهر الفلاحون لدينا في مثال اخر وارد على ابريق الذكي النقاش الموصلي[٣٤] (شكل ٧) الذي قابلناه قبل قليل ، والرسم يمثل منظرا لبستان تتوسطه شجرة محورة عن الطبيعة من نفس الشجرة التي رأيناها في الرسم السابق وعليها ثلاثة طيور ، والى يسارها صياد على جواد يصوب سهمه نحو طائر ، بينما ظهر الى يمين الشجرة فلاح يعزق الارض بسحاة ، ويرتدي الفلاح هنا ثيابا ضيقا ومحبوكا على الجسم ويصل طوله الى مستوى الركبتين ، ويتدلى من أحد فروع الشجرة مزود يبدو انه مخصص لوضع طعام الفلاح .

(شكل رقم ٧)

وتمدنا تصويرة[٣٥] (شكل ٨) اخرى من مخطوط الترياق بنماذج لطائفة من الفلاحين أيضا ، يحملون في ايديهم المساحي ، والصورة تمثل منظرا لبيت او قصرا من الداخل في مقدمته حديقة ظهر بعض اشجارها ، وعليها طيور ، والذي يهمنا من المشهد صورة فلاحين أحدهما يظهر على يمين

التصويرة يحمل مسحاة في يمينه ، ويبدو انه مقبل نحو شخصين يظهران في وسط الصورة ، واما الفلاح الثاني فهو يحتل الجانب الايسر من التصويرة وقد انهمك في عملية الحرث بواسطة المسحاة التي في يده .

(شكل رقم ٨)

اما ملابس هذين الفلاحين ، فقد ارتدى كل منهما ثوبا ضيقا جدا بحيث تبدو ملتصقة على جسميهما تماما . كما يرتدي الفلاح الذي على يمين التصويرة جعبة ، بينما اتخذ لرأسه نوعا من أغطية الرأس يعرف بالطويلة[٣٦] ، اما الفلاح الثاني فقد القى على صدره ازار ازرق اللون تحليه خطوط بسيطة مختلفة الاشكال .

والتقطنا البيروني بتصويرة نرى فيها شخصا يتحدث الى فلاح يعزق حقله بواسطة مسحاة وقد قبض من وسط المسحاة باليد اليسرى، وباليمنى من اعلاه وضغط برجله اليسرى على عترة المسحاة وكف المسحاة مركوزة في وجه التربة وشكلها يضوي تقريبا (شكل ٩) .

(شكل رقم ٩)

ولا تنسى ونحن نتكلم عن الزراعة ووسائلها ان نشير الى طرق الري التي استعملها الفلاحون في ري مزروعاتهم ، ومن هذه الوسائل الناعورة والساقية حيث استخدمتا في ايصال مياه الانهار والآبار الى الجهات البعيدة والمرتفعة . وهاتان الوسيلتان هما الوحيدتان في السقي والارواء التي وصلت الينا مثلة على الآثار العربية . فيما اعتقد

اما الناعورة فتستعمل لري الاراضي المرتفعة عن النهر ، ولا تزال تستعمل الى الآن في منطقة الفرات ، وسميت بذلك لان لها صريفا[٣٧] في دورها . والناعورة لا تختلف عن الساقية في الوظيفة التي تؤديها وهي حمل الماء من الاماكن الواطئة الى العالية . وتعمل هذه الالة بصورة طبيعية تلقائية بقوة تيار مياه النهر . وتتألف الناعورة من عجلة خشبية قائمة تدور حول محورها مثبتة على محيطها مجموعة من الآواني أو الجرار الفخارية وتتحرك هذه العجلة بواسطة قوة الماء الجاري في الانهر الذي يكون مصدرا للقوة ، للحركة التي يكسبها اياها دورانا ، فالمحور يدور على نفسه افقيا ، فالجرار المثبتة في اطار الناعورة عندما تبلغ اعلى وضع لها على محيط العجلة ينقلب وضعها فيصبح افقيا فتصب ما بها من ماء في مجرى يحمل ما تضعه تلك الجرار من ماء الى حيث يراد حمله ، وعمل الفلاح هنا يقتصر على تشغيل الناعورة وضمان جريان الماء الى الاماكن المخصصة والسيطرة على توزيعه .

وهذه الآلة مهما بدت بدائية الصنع والتركيب فانها ما زالت تؤدي مهمات كبيرة في ارواء الاراضي الزراعية على الرغم من التقدم العلمي الذي حصل في هذا الميدان ، وهي بذلك تعكس لنا صورة ناطقة للعقلية العربية التي ابتكرت هذه الآلة ومثيلاتها .

وتعيدنا صورة من مخطوط[٣٨] بياض ورياض المحفوظة في المكتبة الاهلية في لندن ، وهي من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)

وفي هذه التصويرة نشاهد قصرا يطـــل على نهر ، وعند حافة النهر ترتفع ناعورة ، وهي بالشكل الذي وصفناه قبل قليل ، ومع ان صورة الفلاح لم تظهر هنا الا ان المصور ـ على ما يبدو ـ قد وجد ان عمل الفلاح هنا ثانويا بالنسبة لهذه الوسيلة في الارواء ، فهي بعد تشغيلها تستمر في العمل لوحدها بواسطة قوة جريان الماء ، واذا احتاج الفلاح الى التأكد من سلامة سيرها لايكلفه اكثر من القاء نظرة عليها ثم العودة الى عمله في الحقل .

ومن الجدير بالذكر ان هذا النـــوع من آلات السقي قد انتقل الى أسبانيا على أيدي العرب حيث توجد النواعير التي تدار على الخيل في بعض المقاطعات الاسبانية[٣٦] .

اما الوسيلة الثانية التي استعملت في الارواء الساقية او ما يســمى بالناعور الحيواني وتدار الساقية بواسطة الحيوان حيث يعلق بها الثور او الجاموسة او الحمار فيدور في دائرة تلتف من حول البئر حيث تحرك دورته بواسطة قائم خشبي مثبت فوق عنقه رحى افقية متحركة وتلف بدورها عجلة كبيرة راسية تتحرك حركة دائرية ترفع بواسطتها الماء من أسفل الساقية في أواني فخارية متتابعة ترتفع بالدوران ، وعندما تصـــير في مستوى الارض تقذف بالماء الى مجرى مستقل عنها فتحمل الماء حيث يراد حمله .

وقد وصلت الينا صورة للساقية[٣٧] (شكل ١٠) نقلها الواسطي في مخطوط مقامات الحريري يرجع تاريخه الى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م محفوظة في المكتبة الاهلية في باريس ، والتصويرة تمثل مجلس طرب وغناء قوامه مجموعة من الرجال يجلسون حول ساقية في بستان من بساتين بغداد ، وقد

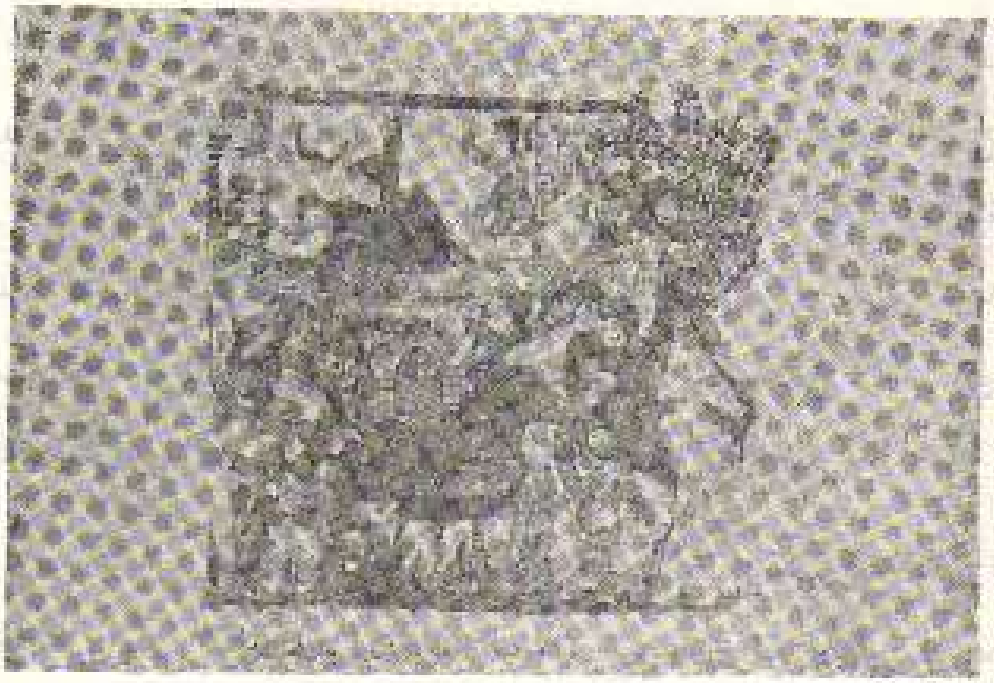

(شكل رقم ١٠)

أظهر لنا الواسطي في الجزء العلوي من التصويرة (شكل ١١) جانبا من ساقية يظهر فيها فلاح خلف ثورين يديران ساقية ، وقد أمسك الفلاح بعصا طويلة رفعها الى الأعلى وعمل الفلاح في ادارة الساقية ينحصر في حث الحيوان على الدوران فهو يسهر على استمرار دوران الساقية وتدفق الماء ومراقبة عدم تسربه او ضياعه قبل وصوله الى الحقل ويفصل بين الرجال وبين هذه الساقية جدار تتوسطه فتحة على شكل عقـــد يتدفق من خلالها ماء الساقية وقد قدر الماء هنا على شكل حلزونات .

وقد عكس الواسطي في هذه التصويرة لمسة انسانية يصور فيها كدح الفلاح في حقله وانشغاله عن الطرب والغناء بعمله الشاق في ادارة الساقية . وثم تفته المقابلة الواقعية بين ملابس الفلاح المهلهلة البسيطة وبين ملابس الرجال المزركشة الفاخرة .

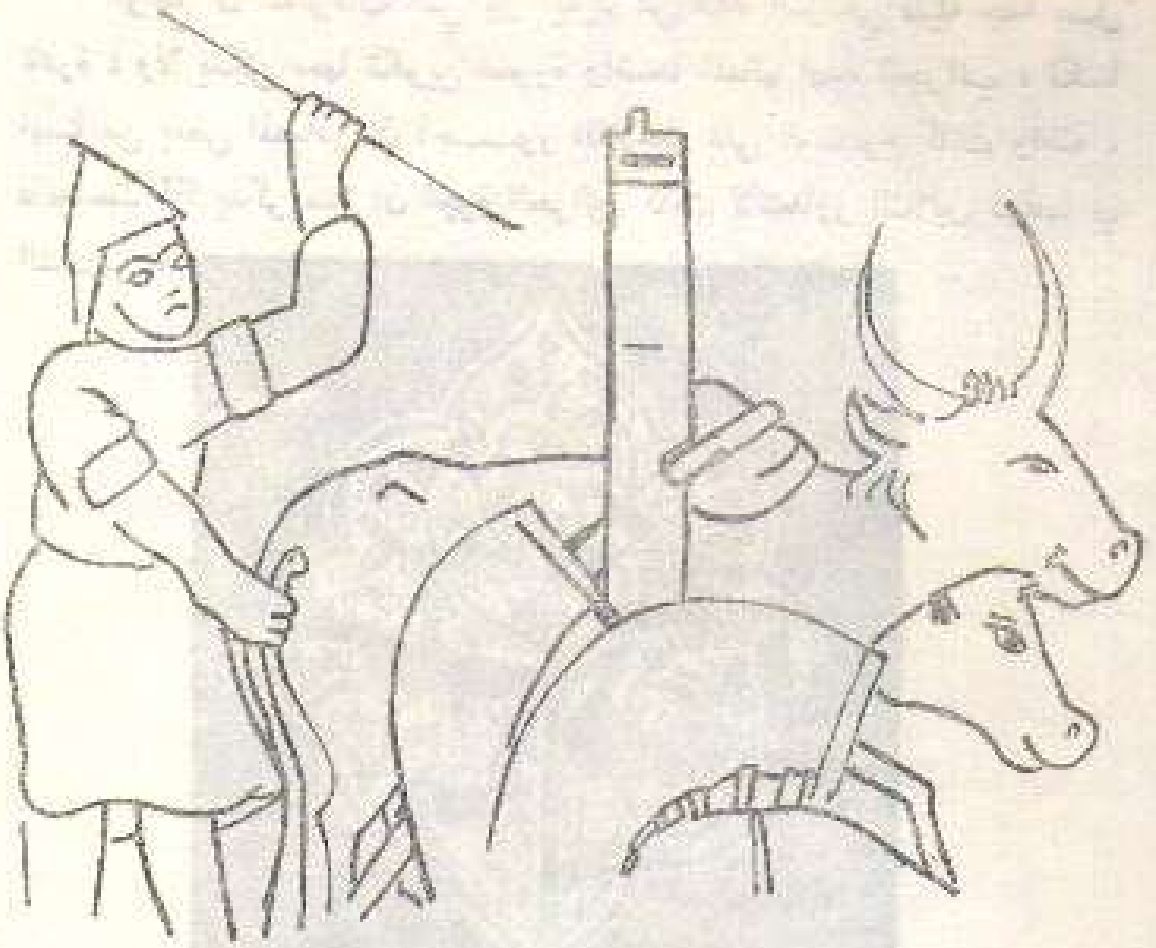

(شكل رقم ١١)

وصورت الماشية على الآثار العربية باعتبارها جزءا من مجتمع الزراعة ، ولنا بعض لوحات تمثل الراعي في مزرعة وهو جالس عند شجرة ينفخ في نايه وبجانبه كلبه يحرس قطيع الغنم ، ويظهر مثل هذا الموضوع على ابريق احمد الذكي النقاش[٤١] الموصلي ، الذي مررنا به ، فمن بين النقوش التي تزين الابريق المذكور رسم (شكل١٢) يمثل راعيا أو فلاحا يجلس امام شجرة ينفخ في نايه ، بينما ترك قطيعه من ثلاث حيوانات ــ أظنها اغناما ــ ترعى وكلبا يجلس على الارض .

ولابد لنا ونحن نتكلم عن الفلاحين ان نشير الى امور اخرى تتعلق بحياتهم مثل الاجور التي كانوا يتقاضونها والطعام الذي كانوا يتناولونه .

الواقع ان المعلومات التي بين أيدينا عن هذه النواحي قليلة جدا بل نادرة ، ولا يمكن معها تكوين صورة واضحة المعالم لهذه الجوانب ، لكننا فهمنا من بعض المصادر ان أجور الفلاحين على العموم كانت واطئة ، فالجاحظ[٤٢] يذكر مثلا ان اجرة الحراثين كانت لاتتجاوز الثلاثين درهما في الشهر .

(شكل رقم ١٢)

اما بالنسبة الى طعامهم ، فاننا نستطيع ان نتعرف بعض الشيء على أنواع الطعام الذي كان مألوفا لديهم وذلك من خلال رواية افاد بها بعض المؤرخين ومفادها ، ان الخليفة المهدي خرج يوما للصيد وعرج الى كوخ أحد الفلاحين وطلب بعض الطعام فقدم له خبز شعير وطبقا فيه اسماك صغيرة وزيتا وتمرا وكراثا وبصلا[٤٣] .

ومثل هذا الطعام لا يكلف الفلاح شيئا من دخله الخاص ولا يدل على انه كان على مستوى عال من الدخل لان ماذكر من نباتات يمكن الحصول عليها من الحقل . اما الاسماك فلقد كانوا يصطادونها من الانهر والترع القريبة اليهم .

وقبل ان نختتم هذا البحث نـــرى من المفيد ان نقدم نموذجا لقرية فلاحية باعتبارها جزءا متمما لحياة الفلاح ، وقد برز لنا هذا النموذج من خلال تصويره[٤٤٧] (شكل ١٣) من مقامات الحريري وهي من بغداد سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م ، وتمثل التصويرة الحارث وابا زيد السروجي فوق جملهما وخلفهما قرية تبدو بيوتها وحوانيتها والمسجد تظهر منارته ، حيث نشاهد النخل تحمل تمرا ، ومن الجدير بالذكر ان أشجار النخيل أهم ما امتاز به أقليم العراق ، وهـــذا يؤكد لنا ان الفنانين كانوا يرتبطون بفنهم بالبيئـــة المحيطة بهم • وقد صور الواسطي أهـــل القرية وهم منهمكون في شؤون حياتهم اليومية فألى اقصى يمين التصويرة سيدة تجلس على مكان مرتفع وهي تحمل مغزلا يدويا بسيطا للغزل ، وقد رفعت خصلة الصـــوف بيدها اليسرى الى أعلى ، بينمـــا يتدلى منه خيط رفيـــع يتصل بالمغزل الذي كانت تبرمـــه بيدها اليمنى ، ونلمح في التصـــويرة ايضا فلاح يحمل مســـحاة استعدادا للخروج للحقـــل او أنه عائدا منه توا وفي وســـط الصورة امرأة يبدو انها تبيـــع الخبز الذي وضعته امامهـــا في طبق ، ونشاهد الى جانب ذلك قطعـــان من المعيـــز مع حارسه يبـــدو انها عائـــدة الى مرابضها او في طريقهـــا الى الحقـــل •

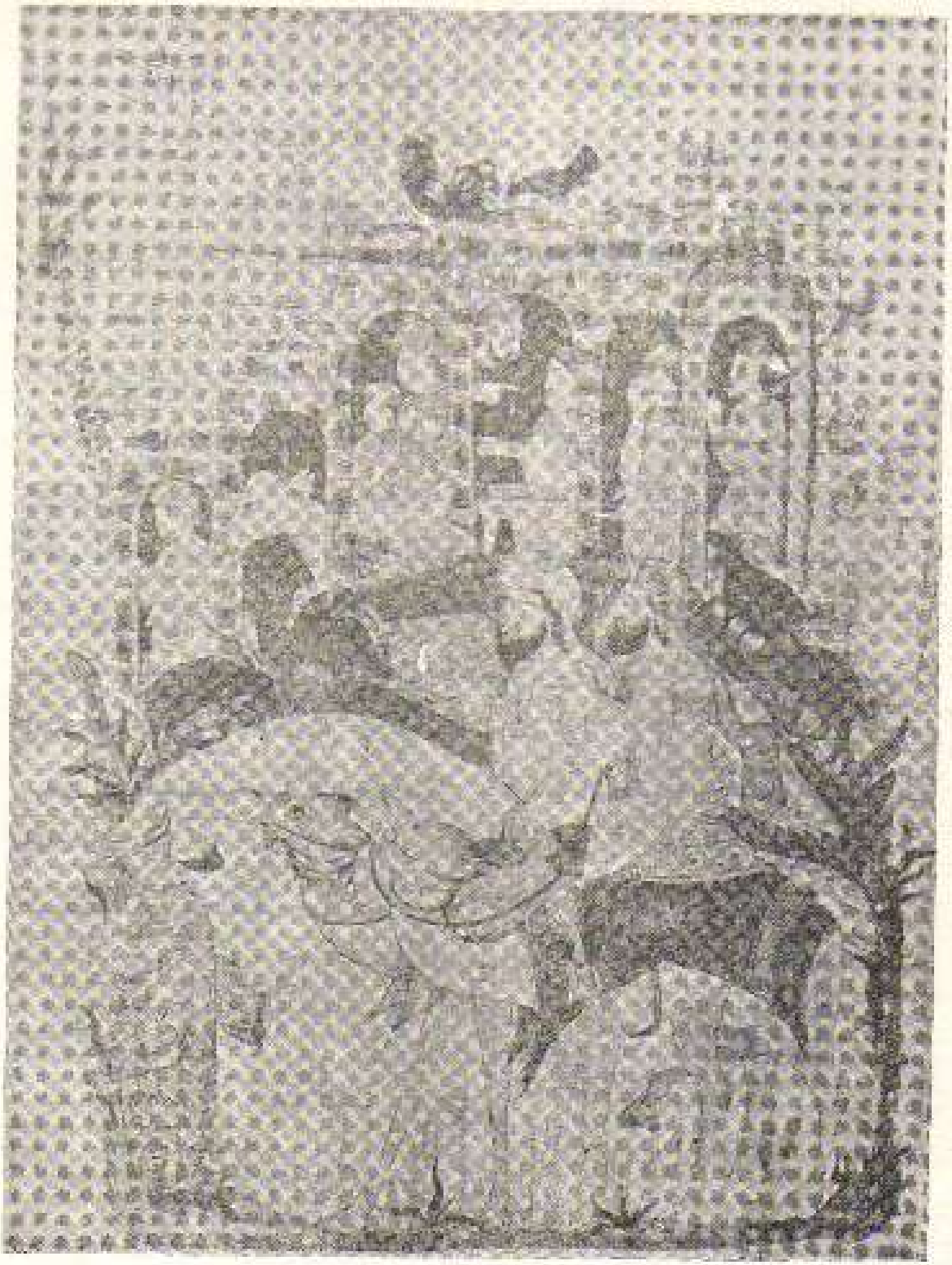

(شكل رقم ١٢)

الهوامش :

١ ــ انظر بحثا بعنوان « الحمال » نماذج من صوره على الآثار العربية . المجلد الاول من العدد (٢١) لمجلة كلية الاداب ــ جامعة بغداد ١٩٧٧ . ص ٥٢٥

٢ ــ باقر ، طه . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة الجزء الاول . الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين . منشورات دار البيان . مطبعة الحوادث بغداد (١٩٧٣) ص٩٥ــ١٩٨ .

٣ ــ راجع الاحكام التي تتعلق بالري والحقول والبساتين (المواد ٢٦ــ٦٠) وكذلك (المواد ٢٤١ــ٢٧٣)

٤ ــ ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم
كتاب الخراج ، المطبعة السلفية القاهرة ــ ١٣٨٢ ص٦٢ ابن سلام ، ابو عبيد القاسم الهروي .
الاموال . تحقيق خليل محمد هراس . دار الشرقية للطباعة (القاهرة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨ م) ص ١٢٥ .
الماوردي : ابو الحسن علي بن محمد ابن حبيب .
الاحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة البابي الحلبي واولاده القاهرة ــ ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦٠ م) ص١٧٧/ الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد الاصناف في العصر العباسي ص١٦ .

٥ ــ ابن حجر : احمد بن علي بن محمد بن ابي الكناني العسقلاني الاصابة في معرفة الصحابة (القاهرة ــ ١٩٣٩) جـ٢ ص٣٦ / الشيخلي : المصدر السابق ص٤١

٦ ــ ابو يوسف : المصدر السابق ص٢٨ .

٧ ــ المصدر السابق ص١١٩ .

٨ ــ آدم ــ يحيى : كتاب الخراج (مصر ١٣٨٤هـ) ص٤٨ .

٩ ــ الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتبين

١٠ــ ابن رسته ــ ابو علي احمد بن عمر .
الاعلاق النفيسة باعتناء ام.جي . ويفوبه . بريل ليدن ١٨٩٢ ص١٠٩٥
١١ــ ابن الجوزي . ابو الفرج عبدالرحمن بن علي المدهش . مطبعة الاداب (بغداد ١٣٤٨هـ) ص٦٥ .
١٢ــ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم مطبعة دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ ــ ١٣٥٩هـ جـ٩ ص٧٠ ، ٧٢ ، جـ١٠ ص٢٤٧ .
١٣ــ ابن الجوزي : المصدر السابق جـ٨ ص ٣١ .
١٤ــ الدوري . خضر : لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط «اداب الرافدين» مجلة تصدرها كلية الاداب في جامعة الموصل . العدد الثاني ، تشرين الثاني (١٩٧١) ص ١٣٠ .
١٥ــ المصدر السابق ص١٣٠ .
١٦ــ ابن الجوزي : المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٦١ــ١٦٢
١٧ــ المقدسي : شمس الدين ابو عبدالله محمد : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم مطبعة بريل (ليدن) ١٩٠٦ م ص ١٣٨ .
الامتاع والمؤانسة . ٣اجزاء تحقيق احمد امين واحمد الزين . مطبعة لجنة التاليف والترجمة (القاهرة ــ ١٣٨٢هـ ــ ١٩٥٣م) ص١٢٥ .
١٨ــ الجاحظ : الحيوان . تحقيق عبدالسلام محمد هارون مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده (القاهرة ــ ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨م) جـ٤ ص٤٢٤ .
١٩ــ اخوان الصفا .
رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء . (بيروت ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م)
الاربلي ــ عبدالرحمن سنبط قنيتو ص٢٨٠ .
٢٠ــ الشيخلي : المصدر السابق ص ١٧ .
٢١ــ اتنكهاوزن . ريتشارد . فن التصوير عند العرب .
ترجمة د. عيسى سلمان وطه التكريتي (وزارة الاعلام العراقية) لوحة ص٨٤ .
٢٢ــ العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد
كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء . عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م جـ١ ص٤٧٦ .

٢٣ـ ابن سيده : ابو الحسن علي بن اسماعيل
المخصص . المطبعة الاميرية ببولاق (القاهرة ـ ١٣١٦ـ١٣٢١) جـ ١١ ص ٢٦ وعثرة المسحاة : الخشبة المعترضة في نصابها والتي يعتمد عليها الحافر برجله . انظر العسكري : المصدر السابق جـ١ ص٤٧٦ .

٢٤ـ النكة . واحدة النكك وهي عبارة عن سفيفة من القماش تستعمل لربط السراويل حيث تعتبر جزءا مكملا للسروال .

٢٥ـ جبة مشمرة المقدم قصيرة تصنع من الصوف .
ابن سيده : المصدر السابق جـ٤ ص٣٦ .

٢٦ـ ابن سيده : المصدر السابق جـ١١ص٢٦٧ .

٢٧ـ التبان : سروال صغير يستر العورة . الثعالبي ابو منصور عبدالملك بن محمد النيسابوري . لطائف المعارف . تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي . دار احياء الكتب العربية (القاهرة ـ ١٣٧٩ ص١٠٠)
ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم لسان العرب . دار صادر بيروت (١٣٧٤هـ) جـ١٣ ص٧٢ .

٢٨ـ ابن منظور : المصدر السابق جـ١٤ ص ٢٨٣ .

٢٩ـ العسكري : المصدر السابق جـ١ ص ٣١٥ .

٣٠ـ العبيدي : صلاح : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي (مطبعة المعارف) بغداد ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م ص٤٣ـ٤٤ (لوحة ٥ ب)

٣١ـ ابن سيده : المصدر السابق جـ٦ ص١٠/جـ١٠ ص١٥٣ .

٣٢ـ سوسة . احمد .
الري والحضارة في وادي الرافدين . (مطبعة الاديب البغدادية ١٩٦٩م) جـ١ اللوح١١ .

٣٣ـ العبيدي . صلاح : المصدر السابق ص٨٦ـ٧٧ لوحة١ ، مكرر ، ز

٣٤ـ العبيدي : المصدر السابق ص ٤٢ .

٣٥ـ انكهاوزن : المصدر السابق سورة ص ٨٥ .

٣٦ـ الطويلة : لفظ يطلق على نوع من القلانس . ويبدو ان هذه التسمية جاءت من طول تلك القلانس . انظر التنوخي : ابو علي المحسن على القاضي . الفرج بعد الشدة : دار الطباعة المحمدية بالقاهرة (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م) جـ١ ص٨٣ .

٣٧ـ ابن سيده : المصدر السابق جـ٩ ص١٦٢

٣٨ـ انكهاوزن : المصدر السابق صورة ص ١٢٧ .

٣٩ـ هونكة . سيجرند . فضل العرب على أوربا ص ٢١٤ .

٤٠ـ حسن زكي محمد اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية منشورات كلية الاداب والعلوم ببغداد شكل ٨٧٦ .

٤١ـ العبيدي : المصدر السابق ص٤٤ .

٤٢ـ الجاحظ : الحيوان جـ٤ ص٤٣٢ / الشيخلي الاصناف ص ٩٠ .

٤٣ـ الطبري : أبو جعفر محمد جرير
تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف (القاهرة ١٩٦٨ ـ ١٩٧١) جـ٨ ص١٧٤/الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس الوزراء والكتاب . تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي مطبعة مصطفى الحلبي واولاده (القاهرة ـ ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م) ص١٤٦ ـ الشيخلي المصدر السابق ص٩١ـ٩٢ .

٤٤ـ انكهاوزن : المصدر السابق ص١١٦ .